مقدمة

عاش السفر داخلى منذ نعومة أظفارى، وكأن روح المغامرة التى نبتت داخلى، قد تمكنت منى، وشجعنى فى ذلك والدى «حسن» رحمة الله عليه، وعدم إعتراض أمى «دولت» .

كنت فى الثانية عشرة من العمر، وبدأت فى القيام ببعض مهام أبى العائلية، كنا نقطن مدينة دسوق فى الخمسينات وأوائل الستينات من القرن الماضى، وفى الأعياد، كان علىَّ السفر إلى المنصورة إذا لم يتمكن أبى من زيارة عمتى التى كانت تقطنها، أستقل قطار الدلتا من دسوق حتى طنطا، وأستقل عربة حنطور تقلنى مع «الزيارة» وهى مكونة من «سبتين» بهما ما يجود به الأهل للأهل، وأصل إلى محطة الأتوبيس، لأركب الأتوبيس المتجه إلى المنصورة، ومن ثم أؤجِرُ حنطورا إلى حيث تعيش عمتى «أنصاف» .

واستعذبت الرحلات

وعندما صممت فى شتاء ١٩٦٥ بالسفر إلى الأقصر وأسوان فى رحلة الثانوية العامة، وكنا قد قطنا المنصورة وجدت دموع جدتى لأبى «بهية» تنسال وهى تقول «يا ولدى هاتتغرب ليه وأنت لسه عودك أخضر» .. فترد أمى بحنان.. «يا خالتى محمد رايح مع زملائه ليتعلم» .!

هكذا.. رأت أمى فى السفر سبع فوائد، ولأنها شخصية قوية ونافذة مع حنان جارف، بدأت فى زرع هذا الذى تملكنى، بل وتنميته، ربما كان بوعى الأم الفطرى التى تدفع وليدها لاكتساب الخبرات.

من هنا

بدأت رحلتى المحترفة مع السفر منذ الأيام الأولى للدراسة الجامعية.

...

وكنت قد انغرست فى حب الوطن بوعى، والانحياز إلى الفقراء منه بلا تعصب، وبدأت أفهم أننى لكى انحاز إلى الوطن، لابد من التعرف إليه.. وجاء انحيازى المطلق إلى فقراء الوطن عقب حادثتين.

الأولى: وفاة أمى فى عام ١٩٦٩، وكنت حينذاك على جبهة القتال فى السويس، نغنى للوطن، ونحلم باستعادة ما سلب منا فى عام ١٩٦٧.

والثانية: عندما سافرت إلى المنوفية - لأول مرة - لأجرى تحقيقا صحفيا لمجلة الشباب العربى، الذى كان يرأس تحريرها فى ذلك الوقت د. مفيد شهاب أمين شباب مصر. وكان التحقيق عن «محاولة سرقة أحلام ٣٣ أسرة كانت قد تمتعت بحقوق المواطنة والتملك لأول مرة فى قرية تسمى «الكوم الأحمر» بالقرب من مدينة أشمون.. لكن لسوء الحظ، كانت الحراسة قد فرضت بطريق الخطأ، وعندما تم تصحيح الخطأ لصالح أسرة طلعت الفرنساوى، كان على الفلاحين

أن يتركوا أرضهم، وقد تعرضت أنا والمصور صبرى الليثى للتهديد والرشوة، إما أن نسلم ما معنا من أوراق وصور، وإما أن نقتل، وفى حالة التسليم نحصل على عشرين ألف جنيه، مع ملاحظة أن أبى أعطانى جنيهين، وأعطتنى المجلة استمارات سفر! .. لم نسلم وهربنا فى الفجر، واكتملت القصة بالسفر إلى أشمون وشبين الكوم.. وقامت القيادة السياسية فى هذا الوقت بحل محترم، يحترم حقوق الفلاحين، وحقوق الملاك.. !»

هاتان الحادثتان حسما داخلى انحيازى إلى الفقراء، وإلى الحقيقة فى هذا الزمان.. وهذه المرحلة العمرية.

...

سكنى الوطن وفقراؤه

وعندما سافرت إلى الوادى الجديد، فى عام ١٩٧١ وقطنت قرية تسمى «بولاق» بالقرب من مدينة الخارجة، أرسلت خطابا لأبى أشرح له ظروف الغربة، وكانت إجابته لى فى رسالة واضحة تقول: «أى غربة تتحدث عنها، لقد زرت نصف مصر، وبقى لك النصف الثانى، أنت فى وطنك مادمت تشعر بالمواطنة الحقيقية، وأنت فى بلدك مادمت تؤدى واجبك تجاهه، يا ولدى.. مصر بلدك» . !

أى أب جميل هذا الذى يزرع الأمل وحب الوطن فى نفس وقلب وعقل ابنه.

...

لقد تحول عشق السفر والانتماء إلى الفقراء والبحث عن الحقيقة ومساعدة زوجتى «سميرة» على الترحال، وعدم ممانعتها لهذا العشق.. إلى عشق لهذا الوطن.

عاشق أنا لمصر نيلها.. طينها.. رمالها.. والأكثر لناسها أولئك الذين سكنوا مصر بلا مزايدة، أو تزايد.

وكانت رحلتى إلى الوطن، الناس، الحجر، هى - كما قال عنها جمال حمدان - محاولة لرسم صورة مصر، ومصر بلا شك موضوع مثالى نظرا لما تتمتع به من طبيعة جغرافية واضحة الحدود، ولما تمتلكه من تاريخ حافل، كما أننا الآن فى حاجة لفهم كامل لوجهتنا، كياننا، مكاننا، إمكانياتنا، ملكاتنا.

...

وبحثى فى أقاليم مصر.. مدنها.. وقراها.. ونجوعها حلم يختلط بالحقيقة!

فإذا كان «فرويد» يرى فى الحلم دلالة على الماضى، وكان «يونج» يرى فى الحلم دلالة على المستقبل، ورؤية المعنى فى التاريخ كما تقول «نعمات أحمد فؤاد» دلالة على المستقبل، فإن وعى التاريخ ليس اجترارا للماضى، إنها معاصرة واستجماع للانطلاق.

هذا ما يحدونى وأنا أتأمل خارطة الوطن، وبوابات مصر الحدودية.. وقد طاردنى لإكمال مشوارى مسألتان الأولى وصف مصر، الذى أعده

مجموعة من الباحثين الفرنسيين قبل أكثر من مائتى عام، وقدمه مترجما لنا أحد دراويش مصر «زهير الشايب» والثانية حلم العم جمال حمدان فى شخصية مصر.

أجوب أرض مصر

أبحث عن البشر والحجر.. عن الحقيقة

...

وإذا كان مايتردد من أن مصر هى «أرض المتناقضات» ربما تحت التأثير الشديد بين الفروق الاجتماعية الصارخة، أو بين خلود الآثار القديمة، وبساطة المسكن الفردى، أو بين الوادى والصحراء، حيث يتجاوران جنبا إلى جنب، كما تتجاور «الحياة والخلود».

لذلك.. فنحن أمام حالة نادرة من البلاد – كما يقول جمال حمدان – من حيث السمات والقسمات، وبالنظر إلى مصر تحديدا، فهى بالجغرافيا تقع فى إفريقيا، وبالتاريخ تنتمى إلى آسيا، وهى متوسطية دون مدارية بعروضها، وموسمية بمياهها وأصولها، هى فى الصحراء وليست منها، إنها واحة ضد – صحراوية بل ليست بواحة! وإنما شبه واحة، هى فرعونية بالجد، وعربية بالأب، ثم إنها بجسمها النهرى قوة بر، ولكن بسواحلها قوة بحر، وهى تضع بذلك قدما فى الأرض، وقدما فى الماء، وهى تمد يدا نحو الشمال، وأخرى نحو الجنوب.. وهى توشك أن تكون مركزا مشتركا لثلاث دوائر: «فى قلب الوطن العربى، ووسط العالم الإسلامى، وحجر الزاوية فى العالم الإفريقى.

وهـى بذلـك.. لا تجمع بين الأضـداد والمتناقضات، وإنما تجمع بين أطراف غنيـة ومتعددة، وجوانب خصبة. ولعـل فى هذه الموهبة الطبيعية، سـر بقائها وحيويتها، وهى حسب نظرية «هيجل» تجمع بين «التقرير والنقيض» فى «تركيب متزن أصيل، ومن ثم تظهر «حقيقة» تتحول إلى «قانون» أن النيل ليس مانحا - فقط - للحياة فى مصر، لكنه مـوزع للحياة على وجهها، لذلك فهو محور مصـر وعمودها الفقرى، ومصر بدورها هى نيلية التركيز والاستقطاب.

ويقرر د. جمال حمدان أن الشـعب المصرى منذ فجر التاريخ وحدة جنسية واحدة الأصل، متجانسة بقوة فى الصفات، والملامح الجسمية، وقد ظل محافظا على هذا التجانس حتى اليوم، ويمكن الكشف عن هذه المسألة بسهولة من أن التماثيل الفرعونية منذ عصر الأهرامات، تتطابق وجوهها مع وجوهنا الحالية.

...

وأقـرر وأتفق مع د. نعمات فؤاد ما توصلت إليه، وما تحققت منه: أن مصر شـخصية ولعة بالولادة والتوليد، فيها نُزُوع إلى السلاسـة فى همـس يبلغ فى الخفوت قـوة التوثيق. فيها حنان فـى حنايا الأعمدة وعروق النبات ونمنمة فى الفن، فإذا بالتشـابه والتشابك ليس بينهما فراق أو شقاق.

وهى.. شخصية فيها ثراء البساطة، وزهد الغنى، وجلال التواضع، وسكينة من مسالمة وسلام.

وهنا

على هذه الأرض:

نضج الإنسان والنضج وعى، والوعى سعى إنه تحريك القوى فى كل مكان.. وهذا ما حدث فى مصر.

إذ إن مصر تعلمت من الحجر الصبر، ومن النور البهجة، ومن الماء الرقة والعذوبة ومن السماء الرحمة، كما أن مصر أحبت الشمس ورأت فيها انتصارا على الظلمة، انتصار الحق على الباطل.

...

والثابت - على حد تعبير د. نعمات فؤاد - أن المصريين انبهروا بواديهم الأخضر، وسموه أكثر من اسم، فهى - أى مصر - عندهم «كيمة» أى «السمراء» و «تاكيمة» أى «الخمرية» و «تاوى» أى «الأرضين» و «ايدبوى» أى «الضفتين».

وقالوا:

«ايره رع» أى «عين الشمس». و «جاه نثرو» أى «عين رب الأرباب» و «إترتى» أى «ذات المحرابين». و «باقة» أى «الزيتونة» الخضراء دائما.

وأطلق عليها الجيران من الكنعانيين والأشوريين والفينقيين والبابليين «مصرى ومشرى ومصرم ومصرايم ومصرين» واختتمها القرآن الكريم بـ «مصر».

وتمتد كلمة «مصر» إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وهناك من يقول: إن «كلمة مصر مركبة من كلمات ثلاث بمعنى «بلد أبناء الشمس» والكلمات الثلاث هى:

«ما» بمعنى موضع.

«سى» بمعنى ابن.

«رى – را» بمعنى الشمس.

ومنها: «راع» الذى ينسب إليه بعض الفراعنة، ومن حب المصريين لمصر، كان قدماؤهم يسمون أنفسهم «شعب الشمس» و «الشعب النبيل» و «شعب الإله».

كما أن «مصر» فى القرآن الكريم ﴿جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ﴾ (١).

يقول الكندى: «وصفها بما لم يصف به مشرقا ولا مغربا، ولا سهلا ولا جبلا ولا برا ولا بحرا» .. ومصر فى القرآن الكريم ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ (٢).

حتى «آدم» الذى فتح عينيه على الجنة، راعته مصر كما يقول الأسيوطى، تمتم «لاخلت مثلك يا مصر بركة، ومازال بك حفظ، ومازال منك ملك وعز، يا أرض فيك الخباء والكنوز، ولك البر والثروة، سال نهرك عسلا، كثر الله زرعك، ودر ضرعك، وزكى نباتك، وعظمت بركتك».

(١) سورة الدخان الآية ٢٥– ٢٧.

(٢) سورة البقرة الآية ٦١.

..

هذه هى مصر، التى أحاول البحث فيها وعنها، وشرف لى أن أكون واحداً منها، هى أرض أجدادى، ومفتاح الحل لأحفادى.

المؤلف
محمد هيكل

obeikandl.com